لماذا تبكي الأمة الإسلامية على فراق سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ؟؟

عطاء الرحمن الندوي

بعد غياب النجوم الإسلامية التي كانت تلمع في سماء نهضة الأمة الإسلامية في هذه السنوات الأخيرة التي ظهرت سنوات فقد علماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين العالميين ، وبذلك أنها مثلت إنذارا شديدا للأمة الإسلامية كما ورد في الأثر النبوي الشريف إن الله لا ينزع العلم إنتزاعا وإنما ينتزع بقبض العلماء ، فقد أفل نجم القرن العشرين الأخير من سماء الدعوة الإسلامية مع غروب شمسه ، وهو سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي – جعل الله مثواه في الجنة النعيم – لقد إستأثرت رحمة الله تبارك وتعالى صباح يوم الجمعة ٢٢ رمضان المبارك ١٤٢٠هـ والموافق ٣١ / ديسمبر ٩٩م إثر نوبة قلبية مفاجئة في بيته الذي وُلد في عام ١٩١٤م في قرية العلماء والمشايخ الذين رفعوا راية الجهاد وعلوم الشريعة الإسلامية لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وملؤوا مكاتب الإسلامية العالمية بأعمالهم العلمية وخدماتهم الإسلامية ، وقد هوى هذا النجم الإيماني الذي أنار الطريق بأنواره الوضاءة وأضوائه المشرقة منذ نصف قرن ، وسيظل التاريخ عامرا بذكرياته العطرة ، وإن عيون الأمة الإسلامية تجود بعبراتها النفيسة وبدموعها الغزيرة ، كما أشار الشاعر القديم :

سيفقدني قومي إذا جد جدهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ومما لا شك فيه لقد كان القرن العشرون قرنا قل فيه الرجال وكثر فيه القيل والقال ، وبهوي هذا النجم أصبحت ساحة الدعوة الإسلامية تائهة وحائرة في الظلام الحالك مرة أخرى ، وأصبحت الأمة الإسلامية مقلقة لا تهدأ للمحة ، وأصبحت جلودها مقشعرة على هذه الصاعقة التي أطارت الكرى عن عيونها ، وأذهلت نفوسها ، وعطلت أذهانها وأدمغتها ، فكدرت صفو عيشها حتى صارت أمة ميتة بين الأحياء وأمة يتيمة بين الآباء والأجداد ، وبين الأمهات والأخوات ، لأن الأمة الإسلامية لم تكد تفيق من صدمة فقد علمائها وعظمائها في هذه السنوات الأخيرة ، حيث فقد العالم والقرن العشرون محدثا بارعا وهو الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وعلامة جليلا وهو سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ثم لم يمض شهر حتى فقد عالما ذاع صيته وملأ بأدبه وفقهه صدور ملايين المسلمين وهو الشيخ علي الطنطاوي ، ثم تبعه عالم ثالث حجة في الفقه تتلمذ على يديه خلق كثير ألا وهو الشيخ مصطفى الزرقاء ، ثم فقد عالما فذا ندر مثاله بين أقرانه وهو الشيخ مناع القطان ثم الشيخ عطية سالم، ثم الشيخ محمد المجذوب والمحدث الشيخ عبد الرشيد النعماني والمحدث الكبير الشيخ ناصر الدين الألباني ، وأخيرا فقد سماحة الشيخ الندوي ، ومع ذلك أنها تعرف إن للإنسان أجل معين ، سُجل في الكتاب الذي عند ربها الذي لا يضل ولا ينسى ، لما كان جنينا في رحم أمه ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ و ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ ومع ذلك كله فإن الأمة الإسلامية فقدت في تشييع هذا اليوم محسنها الأعظم التي تباهي عليه بلسان شاعر عربي :

أولئك أبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع .

وقد نعاني الأخ الكريم يحي يوسف الندوي عبر الهاتف حيث كنت مضطجعا في البيت بعد شغل النهار ، ونزل هذا الخبر علي كالصاعقة ، وفقدت الهمة للقيام والحركة ، حتى خرجت دمعات من عيني ، ما كنت أدري ماذا أفعل ؟ حيث غمامة الحزن كستني وكنت أجد نفسي عاجزا عن الحديث عن شيخي وأستاذي ، ومع ذلك قلت : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وذكرتني حرمي هذه الآية القرآنية ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ وكذلك ذكرتني تلك الآية التاريخية التي تلاها أمير المؤمنين أبو بكر الصديق رضي الله عنه في منبر الرسول ﷺ بعد وفاته ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ تغمدك الله تبارك وتعالى برحمته الواسعة يا أستاذي الحنون ويرحمك خالقك أيها الفقيد الراحل .

ثم اتصلت بالهاتف مع علماء الإسلام وزعماء الأحزاب الإسلامية ورؤساء الجرائد اليومية ووسائل الإعلام الحكومية ببنغلاديش وأخبرتها عن فراق إمام الأمة الإسلامية ، ثم جلست للكتابة عن حياته الحافلة بالأعمال العلمية والدينية والخدمات الإسلامية الجليلة في مجال التحقيق والتدريس والكتابة والتأليف حول قضايا الأمة الإسلامية بالقوة الإيمانية ، ولأجل ذلك بدأت الكتابة بعنوان " لماذا تبكي الأمة الإسلامية على فراق سماحة الشيخ الندوي " لأن الأمة الإسلامية شاهدت منذ نصف قرن أنه يقضي حياته في خدمة الأمة ، وهي أغلى الخدمات لدى ربها ، وكان ساعيا في حل قضايا الأمة منذ نعومة أظفاره إلى أن آتاه اليقين ، وكان ساقيا للأمة المحمدية بعصير حلاوة الإيمان والعقيدة بعد أن فكر فكرا عميقا وتدبر تدبيرا دقيقا في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تلبية

لنداء ربه الكريم الذي سجله القرآن ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ ثم أفاض عليها بعصارة الدروس القيمة والعبر الثمينة في ضوء الحقائق والأرقام ، حتى ملأ مكاتب الأمة شرقا وغربا بكتبه القيمة ، ولذلك قال الشيخ محمد المبارك في وصف كتابه القيم (ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين) " إنه واحد من خير الكتب التي صدرت في هذا القرن " وقال الشيخ محمد المجذوب في كتابه القيم (علماء ومفكرون عرفتهم) " قرأت هذا الكتاب في أناة محاولاة التحرر من إطراء الأستاذ المبارك إياه ، ولكني لم أستطع ذلك لأني لم أجد تعبيرا أكثر إنصافا للكتاب من تلك الكلمة ، وأشهد لقد أعدت قراءة هذا السفر النفيس عددا من المرات ، بين قراءة كلية وأخرى جزئية ، ولا أزال أحس عطشا نحوه ، وقد اثبتت طبعاته الإثنتا عشرة حتى الآن أنه جدير بكل إطراء يستحقه عمل عبقري ، وحسبه تقديرا ما ظفر به من أقلام كبار العلماء كأحمد أمين ، وأحمد الشرباصي ، ومحمد يوسف موسى والشهيد سيد قطب ، وإني لأعتبر هذا الكتاب أنموذجا لعقلانية الشيخ ، فقد جمع بين التاريخ والفقه والبلاغة والنقد والتحليل في انسجام تام بين عناصره جميعا " .

وعلى الرغم من ذلك كله سُلب من الأمة الفرحُ والسرور برحيله إلى الرفيق الأعلى لأنها فقدت برحيله أخا شفيقا ، وعالما كبيرا ، ومربيا عظيما ، ومفكرا إسلاميا ، وعلما من أعلام الإسلام ، وقدوة صالحة في كل شيء من الأخلاق والسماحة والعلوم الإسلامية والشريعة الربانية ، في محبة الآخرين والتشييع عالما من العلماء جمع بين أخلاق المفكرين الإسلاميين والعلماء الربانيين وما زالت له مكانة كبيرة في نفوس الجميع من الصغار إلى الكبار ومن الرجال إلى النساء ، وإنني قضيت تسع سنوات تحت إشرافه ، وأكلت في مائدته المليئة بالأطعمة اللذيذة بشفقته الأبوية النادرة خاصة في شهر رمضان كله خلال ١٩٨٦م - ١٩٩٤م ، ورأيت منزلته بأم عيني بين علماء القرن العشرين ، وتلمذت عليه تفسير القرآن الكريم في مسجد بيته التاريخي حيث يتزاحم فيه طلاب دار العلوم لندوة العلماء وأساتذتها الكبار والزوار الآخرون الذين يأتون إليه من كل فج عميق لإستماع إلى أحاديثه ومواعظه في ضوء القرآن الكريم ، ويجلس أساتذة ندوة العلماء الكبار في هذا الصف القرآني بالهدوء كأن على رؤوسهم الطير ، وما قرأ الفقيد آية إلا وضع عليها الإصبع ، ويقول : إنني ذهبت إلى هذا المكان وفتحت القرآن هناك ثم قرأت هذه الآية للتطبيق على الزمان والمكان الذي أنزلت الآية ، ثم يسأل الحاضرين من كان معي في ذلك المكان وفي ذلك الحين ؟ فيجيبه الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي حينا والشيخ واضح رشيد الندوي حينا آخر بنعم ، أنا كنت معكم وتجولت المكان كله، كما قال سماحته في تفسير هذه الآية : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تمارفيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ وربما كان يذكره الأستاذ محمد الرابع الندوي والشيخ واضح رشيد الندوي والشيخ نذر الحفيظ الندوي والشيخ سلمان الندوي والشيخ برهان الدين السمبهلي الندوي بشيء من التعليقات على بيان الفقيد الراحل ، حيث كنا نهتز طربا وفرحا ، كأننا جالسون بالأجساد في المسجد ونشاهد مع الفقيد الراحل ونتجول بالأرواح في الأماكن التي أنزل فيها القرآن ، وإنني استفدت منه مباشرة في معرفة الكثير من تفسير القرآن الكريم ، حيث كنت من عشاق حفلة تفسير القرآن ، وكنت أحرص على الحضور فيها بالإستمرار ، وكنت مبادرا إلى تلاوة القرآن في حلقة التفسير كل يوم ، حتى ترك الحاضرون الآخرون تناوبهم برعاية مبادرتي بالتلاوة ، وكان له تأثير كبير في نفوس الحاضرين ، وكان الفقيد والدا حنونا وهيأ لطلاب ندوة العلماء جميع الفرص للنهل من العلوم الإسلامية ، وقد كتبت هذا الموضع رثاء للفقيد ، مع أنني أعرف حق المعرفة إن هذه المحاولة محاولة فاشلة لي ، ولا أستطع أو أؤدي حقه ، ولا أن أخرج من هذا البحر المتلاطم ناجحا وفائزا بسبب السن ومبلغي من العلم ، وعلى الرغم من ذلك كله كتبت لكي أستطع أن أتمثل بلسان شاعر عربي إسلامي :

أحب الصالحين ولست منهم
عساني أن أنال بهم شفاعة

فكان الفقيد نموذجا للإنسان والإنسانية ، وجعل العالم العربي والعالم الإسلامي يحترمه بحديثه الجميل والقيم وبمواعظه الحسنة ، وكان مرآة صافية يُرى فيها تطبيق هذه الآية القرآنية تطبيقا صحيحا ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ولأجل ذلك فإنه كسب حب الأمة الإسلامية قاطبة ، حتى قال فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي : " ولا غرو أن يختلف الناس على أشخاص العلماء ، ولكنهم يتفقون على أبي الحسن ، حتى الذين ليسوا من مشربه ، ولا على طريقته ، ولا يملكون إلا أن يختاروه في مجامعهم ، لما خصه الله به من مزايا قل أن توجد في غيره ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ " وأضاف قائلا : " فأشهد أني أحبه ، وأرجو أن يكون حبا لله تعالى ، فقد أحببته لتجرده وإخلاصه وربانيته وأحببته ليقينه وتوكله وقوته ، وأحببته لتحرقه وتوقده وغيرته ، وأحببته لاعتداله ووسطيته ، وأحببته لنقاء فكره من الخرافة ، وصفاء قلبه من الحسد ، وسلامة عقيدته من الشركيات ، وسلامة عبادته من المتدعات ، ونظافة لسانه من الطعن والتجريح ، بالتصريح أو التلويح ، أحببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة ، وبالحقائق عن الصور ، وبالمعنى عن المبنى ، وبالعمق عن السطح ، أحببته لحسن خلقه وسهولته ، وأحببته لحياته ، ورقة طبعه ودماثته ، وإني لأتقرب إلى الله تعالى بحبه ، وأرجو أن أحشر معه ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ﴾ .

البقية على ص - ١٠

والبربرية مع الأسلحة الحديثة ، لأن طاغوتها الأكبر (يلتسين) أصبح مجونا وأسدا هائجا بعد فشله التام في أفغانستان ، فلا يدري ماذا يفعل ، ويريد أن يظهر نسفه كبطل من أبطال العالم من جديد ، ويستطيع أن يخوض المعارك والحروب ، ولو أنه خاض المعركة ضد شعب صغير ودولة صغيرة من حيث العدة والعتاد ، ولا تستطيع أن تقاومها الشيشان ، وعلى الرغم من ذلك كله فإن أبناؤها يجاهدون في سبيل الحرية وإنقاذ العقيدة والإيمان من أيدي أعداء الإسلام والمسلمين متوكلين على القادر القهار ، وتكون هذه العزمة والهمم قدوة ومثالا للآخرين الذين يجاهدون في سبيل الحرية في العالم ، ومن الأسف الشديد فإن العالم الراهن لا يرفع أي صوت ضد هذه الوحشية ، ولأجل ذلك تسفك دماء الأبرار في الشيشان وتصبغ أرض المدن والقرى والبوادي والأرياف والجبال بدماء الشبان والشيوخ والنساء والعجوز ، فليس لهم ذنب إلا أنهم يريدون أن يعيشوا في ظل العقيدة الإسلامية السمحة ، ولأجل ذلك ظهرت إنبعاث الرائحة الكريحة من الجثث المتروكة على الشوارع والآبار والأنهار ، وهذه الظروف الأوضاع القاسية تتطلب منا ومن المسلمين والمؤمنين جميعا من مشارق الأرض ومغاربها أن يقوموا لنجدة الشعب الشيشاني المظلوم ، ويستعدوا إستعدادا كاملا لإنقاذه من مجازر الروس الوحشية ومذابحهم الدموية الشنيعة حيث ولغوا في دماء أبناء الشيشان ، ومثلوا بالأجساد البرينة وهدموا البيوت واحرقوا الأرض والحقول والبساتين وأهلكوا الحرث والنسل ، وإذا رأينا هذا البربرية والوحشية ونتابع الأحداث عبر الوسائل دون أن نأخذ أي قرار وإجراءات شديدة ضد الظالمين فنكون مجرمين عند الله ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

بقية المنشورة على ص - ٨

وله كتب كثيرة بالعربية يبلغ عددها إلى المائة ، ونقلت هذه الكتب إلى اللغات العالمية ، وأحب هذه الكتب إليه هي : " الطريق إلى المدينة " و " النبوة والأنبياء في القرآن " " وآثرها إطلاقا هي " السيرة النبوية " و " ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين " و " الأركان الأربعة " و " الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية " و " رجال الفكر والدعوة في الإسلام " ، وكذلك لعب الفقيد دورا بارزا في المؤسسات العالمية والمنشآت العلمية الأخرى ، كما أنه كان رئيس مجلس أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية ، ورئيس رابطة الأدب الإسلامي ومؤسسها، وعضوا للجنة التنفيذية لرابطة الجامعات الإسلامية في الرباط ، وعضوا في مجمعي اللغة العربية بدمشق والقاهرة ، وللجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها ، ومؤسس لمجمع العلمي الإسلامي بالهند ورئيسه ، ورئيسا للمجلس التعليمي لولاية أترابرديش ، وعضو مؤسس لرابطة العالم الإسلامي ، وعضوا للمجلس التنفيذي لدار العلوم ديوبند ، ورئيس دار العلوم لندوة العلماء إلى آخر حياته ، وهذه المشاركات إنما تؤكد صفته العالمية ، وشخصيته الفذة ، فلا يحتاج العالم إلى ذكر ميزات أسرته فكيف نشأ وترعرع فيها في هذا الموضوع ، فإن الفقيد كتب بنفسه عن حياته وأسرته الحافلة بالخدمة الإسلامية بإسم " في مسيرة الحياة " ومع ذلك أذكر هنا قول الشيخ علي الطنطاوي عنه كما كتب في مقدمة كتاب الفقيد (في مسيرة الحياة) : " لقد كنت أذكر إسم لكهنؤ مرة أمام جماعة من أهل الفضل فما عرفها منهم أحد ، فقلت لهم : إنها مدينة أبي الحسن علي الندوي فعرفوها ، فكيف تريدون مني أعرف القراء في هذه المقدمة برجل هو أشهر من بلده ، حتى إنها لتعرف به قبل أن يعرف بها ؟ " وفي الحقيقة :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم
بقي الذين حياتهم لا تنفع

وهذه سنة الله في الأرض لا تستثنى منها أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب ولا أسرة من الأسر ، ومما يجد بالذكر فإن الفقيد نال جوائز قيمة من قبل المؤسسات العالمية، كما نال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام في عام ١٩٨٠م ، وجائزة " شخصية إسلامية عالمية لعام ٩٨م في دبي ، وأخيرا إتخذ مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية قرارا بالإجماع على اختيار سماحة الشيخ الندوي لجائزة السلطان حسن البلقية ، ولكن الفقيد وزع هذه الجوائز القيمة كلها بين المؤسسات التعليمية وبين المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله وبين المحتاجين وفقرآء المسلمين بصفة عاجلة حيث لا يريد الفقيد أن تكون هذه الجوائز في بيته وهو ينتقل إلى رفيقه الأعلى ، وكذلك نال عدد كبير من المحقيقين شهادات الدكاترة من الجامعات العالمية بإعداد البحوث عن حياة الفقيد وخدماته، كما يقوم كاتب هذه السطور بإعداد بحث عن حياته وخدماته في الأدب الإسلامي في جامعة داكا لنيل شهادة الدكتورة .

وفي الأخير نخلص الدعاء من الغفور الرحيم لفقيدنا الراحل ، ونقول بلسان مبتهل ﴿ ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم * ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم * ﴾

ورحمه الله رحمة واسعة و جزاء على ما قام به الفقيد من الخدمة الإسلامية أحسن ما يجزي به عباده العاملين المخلصين ، وأكرم نزوله في الجنة النعيم ، إنه سمع مجيب وهو على كل شيء قدير .

أين سعدٌ وخالدٌ
والمثنى وعكرمة ؟
أين من صافحوا العلا
في الأيادي المكرمة ؟
وبعد هذا ها نحن نتساءل : أين من سيعيد لأمتنا عزها ومجدها في هذا الظلام ؟
أمتي إن في أنينك صوتا
أيقظ الجُرح بعد طول رقود
كنتِ في الكون راية من تعال
ثم أصبحتِ رايةً من خمود